# الحياة الادبية في الحجاز

## نهضة الشعر

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

( بقية ما نشر في العدد الماضي )

سمع هؤلاء الشعراء هذه الصيحة التي صاح بها أدباء المهجر في وجه التقليد فاستجابوا لها لأنهم وجدوا فيها دعوة إلى الصراحة والتعبير عن النفس في وضوح وجلاء ؛ والعربي أقرب الناس إلى هذه الصراحة ، كما وجدوا فيها خروجاً على التقليد الذي قعد بهم عن الرقي الزمن الطويل ، ولهذا صاح كثير منهم في الحجاز في وجه التقليد ودعوا إلى مثل هذه الدعوة التي دعا إليها جبران فقال أحدهم : « بعض من شباننا الأدباء وبعض من قراء ( الكتب القديمة الجامدة ) يقرض القطع الشعرية البديعة الناصعة ، ناصعة والحق يقال . ولكن ما ذا يضمنها من الأفكار ؟

ينظمها في الخمريات وفي الغزل وفي المديح وفي الحماسة وفي الحكمة ، وكل هذه من الأفكار الميتة التي دفنت مع عصور ... فلا تصلح لنا...

وقال : « أمامنا الوطن ، أمامنا العادات والأخلاق ، أمامنا الحرية بأنواعها ، أمامنا الشرق الكسول ، أمامنا التغني بأمجاد الشرق ، أمامنا العرب بحالتهم السياسية ، أمامنا الغرب باختراعاته »

---

أخشى أن ينتقل بنا الحديث من المائدة إلى مشكلات فلسفية عميقة ، فهي توشك أن تفتح أمامنا أبواب بحث جديد ، جدير بالتفكير . هل هناك مادة في الوجود كما يبدو أم هي بدعة أنشأها الفكر البشري إنشاء وخلقها من العدم خلقاً ؟ ! ... هل تدل مظاهر الأشياء على حقائقها وتنطبق عليها انطباق المثال على المثال أم تختلف عنها اختلافا بعيداً أو قريباً ؟ ! ...

ثم وضع صاحبي كفه القوية فوق كتفي ، وقال في عطف ونصح : فكر في كل شيء ، وستشك في كل شيء ! !

زكي نجيب محمود

. هذا هو الروح الجديد المتوثب الذي سرى في شباب المدرسة الحديثة في الحجاز . ولعل القارئ يدرك التشابه بين هذا الروح واتجاه أدباء المهجر ، بل لعله يدرك التشابه في الأسلوبين وطريقتهما.

ولما كان أدباء المهجر أحراراً في كل شيء ، متمردين على القيود القديمة والأغلال المتوارثة ، فقد بدأ هذا التحرر في القافية وطريقة الوزن الشعري والموضوعات والمعاني والأخيلة ، ومن ثم تابعهم شعراء الحجاز المجددون في كل هذا : فالكثرة الناضرة من قصائدهم لا تتبع قافية واحدة ، والمربعات والمخمسات والدوبيت والموشحات تفوق عندهم القصائد وتربي عليها . ونحن نسوق هنا مثلا من الطرق التي يتبعونها في قافيتهم . فما جاء من ذلك مناجاة « لحسن فتى » يناجي فيها القمر ومنها :

حسبي من الدنيا الحقيرة أن أراك لدى المساء
تلقي بنورك في القلوب كبلسم يزجي الشفاء
فأعود بالذكرى إلى عهد اللذاذة والهناء
وأبث ما يجد الجنان

حسبي من الدنيا بقاؤك ساطعاً فوق الهضاب
مترنحاً من نشوة الحسن المسيطر والشهاب
متطلعاً من عرشك العالي إلى أسرى العذاب
ترنو إليهم في حنان

بل إن الشاعر هنا لا يريد أن يعترف بشطري البيت فساقه جملة كما يفعل شعراء المهجر أيضاً .

ومن الطرائق التي يتبعونها في القافية أن يغير الشاعر القافية في كل بيت ، ولكنه يذيله بكلمة متحدة القافية مع الكلمات الأخرى وفي هذا النوع يقول الشاعر « عمر عرب » في قطعة عنوانها « عصر الشباب » .

حدثيني عن الصبا والشباب ... عن زمان الهناء بين الصحاب
حدثيني

حدثيني عن الهوى يا مهاتي ... إن هذا الحديث يحيي رفاتي
حدثيني

ويقول :

لست أسلو هواك يا هند يوما ... لا ولم أخش في عذابك لوما
صدقيني

ذكريني بذلك العهد عند ... كيف نلنا الآمال والعيش رغد
ذكريني

وهكذا يحاول شعراء المدرسة الحديثة أن يتخلصوا من قيود القافية ؛ حتى ليسوق إليك بعضهم كلاما يخيل إليك بادىء الأمر أنه نثر ، فإذا أطلت النظر فيه وجدته شعرا ونثرا ؛ قد التزم في بعضه الوزن وأطلق الآخر حراً دون قيد ، ومن ذلك كلمة للأديب « عزيز ضياء » عنوانها « عيد » يقول فيها بعد كلام طويل وصف فيه مغيب الشمس قبلة ليلة العيد ....

ثم لما ابتلعها لحدها وغيبها دهرها
صاح في الروض طير
لقد ماتت ذكاء
فكان يوم قديم قد مر وكان شهر قديم قد انقضى
وجن جنون السحاب الحزين
فناح نواحا يثير الحنين
وراح يناجي الربى والحزون
يمزق فوق الربى وجهه
ويهرق فوق الثرى دمعه
ولم يرث قلب لتلك الدموع
فغاض المحب بأنفاسه
وراء الجبال وراء الحبيب ... الخ

فلعلك مدرك بعد هذا أن الأديب هنا قد جمع بين الشعر المنظوم والشعر المنثور وأن الفقرة التي أولها « وجن جنون السحاب الحزين » شعر موزون من بحر التقارب ولكن الأديب لم يلتزم فيه قافية متكررة . على أنك واجد في بقية القطعة تحرراً من الوزن والقافية معاً .

ويجب أن يستقر في أذهاننا أن تقليد الحجازيين المتئدين منهم والمتوثبين تقليد قوي لا تغني فيه شخصياتهم وإنما يقلدون غيرهم في الطرائق والمناهج ويصورون بعد ذلك عواطفهم وبيئتهم ، فهم متأثرون بهذه البيئة أشد التأثر : متأثرون بطبيعة أرضها وعادات أهلها وآمالها وعقائدها .

والشاعر إذا شعر تجد في ثنايا شعره كل هذه الاتجاهات واضحة جلية :

يقول معالي الدكتور هيكل باشا : « ثم إن الأدب يتأثر دائما بالبيئة التي تحيط به كما يتأثر بأحداث الزمان ، وإذا كانت هذه الأحداث قد بثته في الحجاز ، حتى جعلت أهله يتطلعون إلى غيرهم من الأمم المجاورة لهم ، فان البيئة العربية الصحيحة التي لم تتغير ، قد بقي لها أثرها في هذا الأدب ، شأن كل بيئة في أية أمة من الأمم ، ولعل أثر البيئة الطبيعية أكثر وضوحا في شعر أدباء الحجاز منه في نثرهم .. »

ونحن إذا أردنا أن نلتمس الدليل على ذلك وجدناه واضحاً جلياً ، فهم مع اطلاعهم على الآداب الأخرى لم ينسوا أن يصفوا جبالهم وهضابهم وما ينبت في أرضهم من أثل وأراك ؛ فعبد الوهاب آشي يقول :

بلاد حبتها الطبيعة ما ... يحبب للقلب أدوارها
جبال تناطحجون السحاب ... وتوحي إلى النفس أفكارها
تنائف تمرح فيها الوحوش ... تساجل في الدوح أطيارها
ومشتبك الأثل في غابها ... كما جارة عانقت جارها
إذا الليل أرخى ستائره ... أرتك الكواكب أنوارها

وفي الأبيات الآتية ما يصور للقارىء ناحية من نواحي الحيا بالجزيرة حيث يقام استعراض عام للجيوش ، فتبدو الخيل صاهلة والإبل ترغو والأعلام خافقة ، وقد قيلت في الاستعراض الذي أقيم احتفالا بنجاة جلالة الملك ابن السعود من حادث المطار ١٣٥٣ هجرية :

في موكب (العرضة الكبرى) وقد لعبت
فيها الرماح وقامت ترقص القضـ
والخيل تصهل والأعلام خافقـــة
والأســـد تزأر والآفاق تصطخ
والابل ترغى وأصوات البنـادق
كالرعد المدمدم تروى رجعها السـ

ولما كان اتصالهم بالثقافة الحديثة اتصال النائب المجد ، اتضح الذي لا يترك كتابا ظهر في عالم التأليف حتى يأتي عليه ، لهذا هذا فقد رأيناهم يعالجون الموضوعات النفسية ويأتون ببعض المعاني الفلسفية التي تتصل بالروح والحياة والغرائز البشر فأحمد قنديل يناجي الحياة في قصيدة طويلة جاء فيها :

أنا بين ماضي المنير وحاضري الـ ... اجي وتحت غمـامة المستقبل
متفائل متشائم في فكرى الـ ... اى عراك هائل لا ينجلي
أبداً أظل برحلتي كالهـائم الـ ... اعي إليـــك بحيرة وتأمل
لا تصطفين سوى محب حام حو ... لك هائم متعزلا يستكين

ولثمت فاك فكان خمرى اللمى حلو الرحيق
لكن نشدت الطهر فيك فما وجدت لعبوق

إلى أن يقول :

من أنت ؟ بل قولي بحقك : من أنا ؟ فأنا الصديق
المكره الصادى الفؤاد ، أنا الأسير أو الرقيق
أنا من ولدت مزوداً بهواك يجرى في العروق
سأظل حولك ساخراً دهشا بذياك البريق
متصابياً أسقى الرضا حيناً وأشوى بالحريق
حتى إذا انكشفت ستارتك الصفيقة في المضيق
سأكون ويلك مع ضحاياك الرقود بذى الشقوق
وأعود في كنف الخلود أو السما روحا طليق

وقد اتفقت كلمة شعراء الحجاز من المدرستين على أن يطرقوا من موضوعات الشعر ما يلامس الحياة الواقعة ، ويتصل بآمالهم وما ربهم ، فهم يتناولون الموضوعات القومية والاجتماعية التى يحتاجون إليها فى مجتمعهم ؛ فالشيخ محمد سرور الصبان يقول في الوطن :

أنا لا أزال شقى حبك هائماً في كل واد
زعم العواذل أنني أسلو واجنح للرقاد
كذبوا وحقك لست أقدر أن أعيش بلا فؤاد
ولسوف أصبر للعصا ... ئب والكوارث والبعاد
حتى أراك ممتعاً ... بالعز ما بين البلاد

ويقول الأستاذ احمد العربى فى قصيدة له عنوانها « أيها العيد »

أيها الموسرون رفقا وعطفاً ... وحناناً بالبائس المحزون
ربما بات جاركم طاويا جو ... عا بثم تشكون بشم البطون
ربما ظل طيلة العيد يستخفى من الصحب قابعاً كالسجين
يتوارى من سوء منظره المزرى ومن حاله الكريه المهين
أى فضل للعيد يستأثر المثرون فيه بالطالع الميمون ؟ !
والفقير الكئيب يرجع منه ... بنصيب المرزأ المغبون ؟ !

وشعراء الحجاز منذ أن تفتحت أمامهم نواحى النهضة الحديثة يعالجون بشعرهم الموضوعات السياسية ويرون أن النهضة لن تكون إلا إذا تعاون العرب جميعاً فى أقطار الأرض . وفيما يلى ابيات للأستاذ النزاوى يخاطب فيها مصر :

يامصر أنت وقد دأبت منارة ... للمهتدين وسمتك المترسم

* * *

يا مصر ما أولى بنيك بقومهم ... فعلام يوغرك الخلاف المبهم
يامصر قد أغضيت عمن ليلهم ... فيك السهاد وفى جمالك تيموا
يا مصر يا أم الحضارة والنهى ... مهلا فحبك فى الجوانح مدعم
يامطمح الأمل المتيد وعزة الماضى ... فى المجد وما أظل ويقدم
يا ربة الأهرام والمجد الذى ... ما زال فى أمم البسيطة يكرم

إلى أن يقول :

ردى على تحيتى فلا متى ... قلب عليك مع العتاب مقسم

ويقول الأستاذ عواد من قصيدة يصف فيها جنبات الديموقراطية فى ميادين القتال :

يستثير المجد فى عمل ... هائل المغزى يعظمه
حيث موسيقا الخلود إذا ... طوحت بالجبن تحطمه
والصدى كالصوت صاعقة ... والصفوف السود ترجمه
يسأل الأقدار هل بده ... تغسل العدوان أو دمه ؟
فاذا بالكون ليل أسى ... تتهاوى فيه أنجمه
وإذ الأصداء قائلة : ... قول صدق لا تجمجمه
أيها التاريخ ذا بطل ... فعله للخلد مسلمه

ومن الأغراض التى نالت حظا من الرقى « الغزل » فقد اتجه الشعراء فيه إلى ذكر الهوى والشوق وتوجع الصبابة وفى وفى الأبيات الآتية وهى « لمحمد حسن فقى » ما يدل على صدق العاطفة وتدفق الشعور :

لا أنت يا قلب بالسالى فتهجره ... ولا الوصال بميسور ولا دانى

عش هكذا خافقا ياقلب مكتئبا فليس حزنك بعد اليوم بالفانى
أواه ! إن جحيم الحب يصهرنى فما الذى بجحيم الحب أصلانى !!
لا آخذ الله من أصمى بمقلته قلبى وغادرنى نهبا لأشجانى
إليه أبعث أنانى مؤججة ومنه أقبس أشعارى وألحانى
وفيه ألتذ بالبلوى وأحمدها إن كان يرضيه تعذيبى وهجرانى

وليس عجيبا أن يجيد العربى ذكر الهوى والغرام ؛ فهو عفيف لم تلوثه المدنية بآثامها ، ولم يسلس قياد المرأة له حتى تنطفىء جذوة غرامه وتخبو حدة حبه . فلا تكاد فتاة المدن فى الحجاز تتجاوز عهد الطفولة حتى تحتجب عن الأنظار ويضرب الحجاب بينها وبين الشبان ، ويصبح من المحال أن يلتقى شاب بفتاة أو أن يختلس منها نظرة عابرة .

وفى الشباب الحجازى عاطفة متقدة ، أملتها عليه طبيعة هذه البلاد المتقشفة ، فهو إذا تحدث عن الهوى كان حديثه حديث من حدت شهواته ، فخرجت أبياته زفرات وآهات ملتهبة . قال الأستاذ حمزه شحاته :

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق عز حتى السلام عند التلاقى
يامعانى من داء قلبى وحزنى وسلبا من حرقتى واشتياقى
هل تمثلت ثورة اليأس فى وجهى وهول الشقاء فى إطراقى
أى سهم به اخترقت فؤادى حين سددتها إلى أعماقى
إذ تهاديت مبدلا نظرة العطف بأخرى قليلة الإشراق
مسرعا فى المسير تنهب الخطو فهل كنت مشفقا من لحاقى

وتهيأت للسلام ولم تفعل فأغريت بى فضول الرفاق الخ

أما سوق المدح فى الشعر الحجازى فهى نافقة رائجة ، ولهذا الغرض شعراء من المدرسة المتئدة قد أجادوا فيه وأكثروا ، ولعل الذى جعلهم يجيدون ويطيلون ماوجدوه فى جلالة ابن السعود من معان تستأهل المدح وتستحق الإطراء والثناء ؛ فهو الذى أمن البلاد بعد خوفها ، وهو الذى بعث الحياة فى نواحيها فشاد دور العلم واستحث الهمم للنهوض ، وهو الكريم الذى يولى الهبات وهو الشجاع الذى أسس الملك على أساس من القوة .

ولا يقتصر المادحون على مدح الملك وإنما يمدحون أبناءه الأمجاد فيجدون عندهم من الحفاوة والتكريم ما يرضى نفوسهم ويحملهم على المزيد . قال النزاوى يمدح جلالة الملك بعد الحلف الذى أبرم بين الحجاز واليمن :

وأنت الذى أعلى بك الله صرحها وأرشدها للعرف بعد التناكر
فأمانيوك الصيد فالدهر شاهدى لديك بما قد قلدوا من مفاخر
أصاب ولى العهد أبعد غاية تسامت فأعيت بالثنا كل شاكر

وقال أيضا فى قصيدة طويلة يهنىء بها سمو الأمير فيصل بعودته من رحلة له فى أوروبة سنة ١٣٥١ هجرية :

بدر تم يتجلى أم فلق أم شعور فاض فاستهوى الحدق
أم هو الفيصل ألقى ضوءه يغمر الشعب ويستبق الرمق

* * *

أيها القادم من أقصى الورى قد ملأت اليوم بالبشر الفلق
قد شهدت الشيخ فى حبوته والفتى الناشىء بالحب فهق

إلى أن يقول :

فإذا ما قلت شعبى مخلص لمليكى قالت الدنيا صدق
أى أمن نرتجيه وسنى ونعيم فوق ما فينا بسق

ولا ضير علينا بعد الذى خصلناه فى باب الشعر أن نقرر أن الشعر الحجازى قد تقدم فى هذه الفترة القصيرة : فى أغراضه ومعانيه واستطاع أن ينأى عن التلاعب بالألفاظ وألوان الزينة . ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقول ، إن الحجاز مهد الأدب شعره ونثره لا يزال يتطلب من شعرائه المزيد وبخاصة فيما يتصل بقوة الأساليب ورصانتها ؛ فإن الكثير منهم مع إجادته لا يهتم أحيانا بجزالة الأسلوب ورصفه شأنه فى ذلك شأن شعراء المهجر أولئك الذين يقول فى أدبهم الأستاذ العقاد : « وبين محتويات هذه المجموعة « مجموعة من أدبهم » ما يسمو معناه إلى درجة رفيعة فى البلاغة والذكاء وفيها من الابتداع ما يقل مثله بين آيات أدباء الغرب العصريين ولا يؤخذ عليها إلا ما يؤخذ عادة على كتاب العربية فى أمريكا : تساهل فى قواعد اللغة ، وضعف فى أساليب التعبير بها ، وما عدا ذلك فطرفة تستحق الثناء »

أحمد أبو بكر إبراهيم